(٢)

البروفسير الحافى

القصة التى يحكيها الكتاب الذى سأعرضه، والتى سأحكيها هنا مختصرة، قصة غريبة، لا تصدق، لكنها تستحق أن تُروى. هى قصةٌ تحْكى كيف تتطور فكرةٌ تافهة فى عقل جاهل يحتمى بإيديولوجيا الحزب الحاكم وجبروته، ثم تجد الترحيب والحفاوة والتهليل فى الجرائد والمؤتمرات وأجهزة الإعلام، فيزداد صاحبها غروراً ويتضخم حجمه ويتصور أنه عالمٌ، حتى يصدق نفسه؛ فيقود بلاده إلى كارثة. وأنا لم أقرأ عنها بالعربية إلا فقرات جد قصيرة. حاولت كثيرًا أن أعرف التفاصيل. ظهر عنها كتاب فى أوائل الستينات لم أعرف به إلا بعد أن نفدت طبعته. وفى صيف ١٩٩٩ عثرت على هذا الكتاب الذى أعرضه هنا: (لايسنكو وتراجيديا العلم السوفييتى). أفزعنى كثيرًا ما قرأته. القصة أفظع مما كنت أتخيل.

كان لايسنكو بلا شك فى رأيى واحدًا من أهم أسباب انهيار الاتحاد السوفييتى، فلقد دمر هذا الرجل، وحده، الزراعة السوفييتية. لكنى لم أكتشف حجم هذا التدمير إلا بعد قراءة كتاب سويفر، الذى يعمل الآن أستاذًا ورئيسًا لمعمل الوراثة الجزيئية بجامعةٍ أمريكية. كان سويفر طالبًا

فى الخمسينات فى موسكو، استمع إلى محاضرات لايسنكو ووقع تحت سحر حديثه وحماسه، لكنه جُرِّد فى السبعينات من درجاته العلمية ومن وظيفته لأنه عَضَّد الفيزيائى أندريه زخاروف، كما انضم إلى حركة المنشقين بالاتحاد السوفييتى. تمكن فى ذلك العقد من جمع كل ما أمكنه عن لايسنكو، ليكتب بالروسية (أفضل رواية عن تاريخ لايسنكو وعصره). ثم سُمح له على نحو مفاجئ بمغادرة الاتحاد السوفييتى عام ١٩٨٨، ليُترجَم الكتاب ويُنْشَر باللغة الإنجليزية فى عام ١٩٩٤.

تسبب لايسنكو وبطانته فى فساد أخلاقى وسياسى كبير. يحكى تاريخ هذا الرجل كيف أن الوهم إذا فُرض قسرًا بالإلحاح عليه فى أجهزة الإعلام، قد يتحول فى عقول الناس ويصبح كيانًا قائمًا بذاته. تكشف القصة عن الدكتاتورية السياسية وكيف تؤثر على كل مناحى الحياة فى الدول الشمولية. لم تكن اللايسنكوية مجرد نتاج لفساد ستالين، ولم تنشأ فقط عن عزل المجتمع بعيدًا عن التحكم فى أموره إبان (عبادة الفرد)، إنما كانت هى النتيجة المنطقية لتحكم الحزب فى العلم، هى النتيجة الوحيدة لانعدام التعددية، لقمع كل معارضة، للاعتقاد بضرورة تحكم البروليتاريا والفلاحين فى توجُّه العلماء والمثقفين، لتحكُّم السياسة فى العلم. لم تكن نتيجةً للنظرة غير العلمية لفرد حظى بتعضيد قادة الإيديولوجيا الرسمية وآلية الدولة، وإنما كانت (ظاهرة اجتماعية) لا تظهر إلا مع العلم المُخَطَّط سياسيًا. تقود الديكتاتورية إلى إضفاء القوة على الديماجوجيين والدجالين والانتهازيين الذين يُعهد إليهم

بتنفيذ أوامر الحزب، يتحمسون لها، ويقومون في ذات الوقت بإذكاء آمال جوفاء في القادة على القمة، وبقمع المعارضة العلمية، ليحولوا المؤسسات العلمية التي تمولها الدولة إلى منصات يرتفعون بها ويجمعون المال.

كان لايسنكو من أوائل البيولوجيين الذين اكتشفوا المطلوب منهم: مشاريع مؤقتة، تذاع في الوقت المناسب، تُعِد بأنهار اللبن والعسل، فإذا ما تهاوى أي مشروع أنحى باللائمة على من قام بتنفيذه، أو على الأعداء الذين يقفون ضد الماركسية. ولقد استخدم لايسنكو استراتيجية أنجح السياسيين، إذ يوجه نقده إلى الأعداء الإيديولوجيين، ثم يطلق فقاعة جديدة يوجه إليها الأنظار، فإذا ما انفجرت اتهم العلماء الحقيقيين بعد أن يشوه سمعتهم، حتى لو كانوا ممن يخدمون في بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي.

كان لايسنكو يشعر بخفة وزنه العلمي، وبأن زملاءه لا يأخذون أفكاره مأخذ الجد، فكان يصب جام حقده على منتقديه، ويسِمُهم بالانحراف السياسي فيقبض عليهم ويسجنون وقد يُعدمون. لكنه أبدا لم يستطع أن يقضي تمامًا عليهم. كان بينهم من الشجعان من وقف في وجهه حتى أثناء حكم ستالين الرهيب. لقد وُضع الأساسُ الإيديولوجي للأيسنكوية عندما ادعى صاحبها أن الطبقة المثقفة هي شريحة من المجتمع معادية للبروليتاريا. قال لايسنكو في واحد من كتبه: (إن قوتنا تنبع من حقيقة أننا تربَّينا في كنف حزبنا البلشفيكي وأرضنا الاشتراكية الحبيبة.

إن قوتنا تنبع من حقيقة أن الدارونية كانت تقود أعمالنا، وأن النظرية العظيمة لماركس – إنجلز – لينين – ستالين هي التي تهدينا سواء السبيل. لو حُرِمنا من هذا كله لأصبحنا بلا حول ولا قوة). إذا سادت العلمَ الإيديولوجيةُ السياسيةُ والديماجوجيا، فلا يمكن للإبداع أن يحيا. إن الحكم الوحيد على قيمة العالِم لابد أن يكون منجزاته وقدراته العلمية لا معتقداته السياسية. لكن لايسنكو يقول «إن الحياة السوفييتية ذاتها تدفع الفرد ليصبح عالِمًا من نوع ما.. إن كل مشارك ذكي في نظام الكولخوزات والسوفخوزات هو بشكل ما ممثل للعلوم الزراعية. في هذا تكمن قوة العلم السوفييتي وقوة كل عالم سوفييتي). أي علم هذا وأي علماء!!

لايسنكو: البروفسير الحافي

ولد تروفيم لايسنكو في ٣٠ ديسمبر ١٨٩٨ لعائلة أوكرانية بقرية كاولوفكا. دخل مدرسة القرية ليتعلم القراءة وعمره ثلاثة عشر عامًا ليبقى بها سنتين. ثم درس لفترة تزيد قليلاً عن سنتين في مدرسة أولية للفلاحة كان خريجوها يعملون عادة كبستانيين لدى كبار الملاك. في خريف ١٩١٦ تقدم للالتحاق بمدرسة الزراعة والفلاحة فرسب، لينجح في العام التالي. تدخلت الحرب العالمية الأولى في مسار تعليمه، إذ أصبح التعليم غير منتظم، فأرسلته المدرسة إلى كييف لبضعة أشهر تلقى فيها فصولاً في صناعة السكر، ثم عمل في محطة حكومية صغيرة مهمتها انتخاب النبات وإنتاج سلالات جديدة من المحاصيل الزراعية وتوزيع

العُقل وإرشاد الفلاحين. مكث بهذه المحطة شهرين ثم تحول إلى محطة فى بيلايا لانتخاب بنجر السكر، حيث حصل على أول ألقابه (أخصائى انتخاب البنجر). فى تلك السنين كان قادة البولشفيك يحاولون توسيع قاعدة الطلبة من بين صفوف البروليتاريا والفلاحين. اقتنص لايسنكو الفرصة والتحق عام ١٩٢٢ بمعهد كييف للزراعة كطالب من الخارج – إذ كان يعمل لا يزال فى بيلايا. وفى عام ١٩٢٥ حصل على شهادة مهندس زراعى. كان لا يعرف لغة أجنبية، وبذا فلم يكن – طول عمره – على صلة بالعلم خارج الاتحاد السوفييتى.

عين مهندساً زراعيًا فى محطة تجارب مركزية لتربية النبات فى أذربيجان، وكانت مهمته هى (انتخاب البقوليات ونباتات العلف ونباتات التسميد الأخضر). كانت المحطة تتبع (معهد علم النبات التطبيقى والمحاصيل الجديدة) الذى يرأسه نيكولاس فافيلوف، وعُهد إليه بفحص إمكانية زراعة المحاصيل البقولية، إذ لم تكن هذه المحاصيل شائعة فى أذربيجان. كانت مهمة بسيطة يمكن أن يُعهد بها إلى أى مساعد معمل. قام لايسنكو فى العام الأول بزراعة البسلة، كان ذلك فى شتاء ٢٥ – ١٩٢٦، وكان شتاء معتدلاً، فنجحت الزراعة. كانت البداية مشجعة لكنها تحتاج إلى تطوير لتصبح النتائج حاسمة.

ثم حدثت بالصدفة واقعة هامة. كان الصحفى البارز فيودوروفيتش – من جريدة برافدا – يبحث عن بطل ذى خلفية فلاحيَّة، فكتب مقالاً

يتحدث فيه عن (حقول الشتاء) وعن لايسنكو الذى (لم يحظ بتعليم كثير، لم يدخل جامعة، لم يدرس الشِّعْر على أرجل الذباب؛ وإنما اتجه إلى الصميم). مكث هذا الصحفى يومين مع لايسنكو بين الحقول فلاحظ أنه متقشف جاد هادىء، لم يره مبتسمًا إلا مرة واحدة. (كان للمسكين مظهر مكتئب.. عيناه حزينتان، ينظر إلى الأرض وعلى وجهه تعبيرات شخص يفكر فى ارتكاب جريمة قتل.. ولقد أصبح لهذا البروفسور الحافى أتباع، وطلبة، وحقول تجارب). أشعل هذا المقال رغبة لايسنكو فى النجاح السهل.

الإزياح .. أكان كشفًا ؟

بعد أن ظهرت مقالة برافدا ، تحول لايسنكو، ومعه دولجوشين، وفريق من المساعدين، إلى موضوع آخر: دراسة أثر انخفاض درجة الحرارة على النباتات. عمل الفريق من خريف ١٩٢٦ حتى ربيع ١٩٢٧. غيرت هذه الدراسة مجرى حياته. جمع مساعدوه سجلات عن ميعاد الزراعة والإنبات والإزهار والنضج فى القمح والشعير والجويدار والشوفان والقطن، كما جمعوا المعلومات عن درجات حرارة الجو – وهذه كلها معلومات بسيطة تُجَمَّع روتينيًا بمحطات التجارب. نُظِّمت هذه البيانات فى جداول طويلة كتب لها لايسنكو حواشى هزيلة ونشرت عام ١٩٢٨ فى مجلة محلية، وعليها اسمه. بلغ حجم هذه الدراسة ١٦٩ صفحة (تشغل جداول البيانات منها ١١٠ صفحات)، وكلها ملاحظات مما نجده عادة فى دفاتر المحطات لا فى الأوراق العلمية.

كان تعريض نباتات الحبوب الشتوية إلى فترة من البرد كي تطرد السنابل مبكرًا، أمرًا معروفًا من زمان، أطلق عليه علماء فسيولوجيا النبات اسم (الإرباع). لكن يبدو أن لايسنكو لم يكن يعرف هذا، فقد كان يعتمد على الجرائد اليومية لا على المجلات العلمية.

في مؤتمر عقد في كييف في ديسمبر ١٩٢٨ عرض لايسنكو ورقة له مع دولجوشين أعلن فيها صراحة أن وراء بحثه هذا فكرةً ثورية قد تُغَيِّر مجرى الزراعة تمامًا: بَذْر حبوب الشتاء في الربيع لتنمو تمامًا كما تنمو محاصيل الربيع.

تزرع بذور قمح الشتاء عادة في الخريف، لتنبُت قبل حلول الشتاء البارد، ثم تستأنف النباتات نموها بعد نهاية الشتاء لتُحصد في الصيف التالي. فإذا كان الشتاء قاسيًا كثير الصقيع فقد (يَخنق) الثلجُ النباتَ تحته، وإذا كان الربيع كثير المطر فقد يتعفن المحصول قبل ضمه. وقد ادعى لايسنكو في ورقته أنه إذا ما عُرِّضت للبرودة بادراتُ القمح الشتوي ولم تزرع حتى الربيع فإنها تتجنب مخاطر الزراعة في الخريف ويزيد محصولها عند زراعتها في الربيع – فمحصول القمح الشتوي أفضل من محصول الربيعي.

وفي صيف وخريف ١٩٢٩ بدأت الجرائد تنشر أخبارًا تقول إن والد لايسنكو – عضو كولخوز قرية كارلوفكا – قد أجرى (تجربة) على قمح شتوي تم إرباعه. كتبت جريدة برافدا في يوليو ١٩٢٩ تقول (بَذْر

لايسنكو الأب.. القَمْحَ الـذى تم إرباعـه، فـى حقلـه ربيـع ١٩٢٩ متبعًـا تعاليم ولده. ومنذ أسبوع قامت اللجنة الزراعية لأوكرانيا بزيـارة الحقـل. المتوقع أن يتم الحصاد فى ٢٠ أو ٢٥ يوليو. وتقدر اللجنـة أن المحصـول سيصل إلى ثلاثة أطنـان، مقارنـة بمتوسـط يبلـغ طنًـا واحـدًا لكـل القمـح الربيعى بالمنطقة)!

والحق أن بيانات لايسنكو كانت دائمًا غير جديـرة بالثقـة، فتجاربـه فى واقع الأمـر لم تكـن تجـارب علـى الإطـلاق. لم تُـزرع حقـول بـالقمح العادى حتى يمكن إجراء المقارنة. لم تُكرَّر للتـأكد مـن النتـائج. لم تُنشـر مفصلة فى مجلة علمية – كانت نتائجه جميعًا تظهر فى الجرائـد أو فـى مجلته الخاصة (الإرباع).

تحمست جريدة برافدا لـه حمـاسًا منقطـع النظير. كتبـت تقـول (إن التوقعات من هذا البحث الرائع للزراعى لايسنكو أبعد من الخيـال، بعـد أن عضدتها البيانات التجريبية الهائلـة). (إن كشـفه سـيقود زراعتنـا إلى طريـق عريـض ذى إمكانيـات رائعـة.. وسـيزيد كثـيرًا مـن سـرعة بنـاء الاشتراكية).

كـان الجميـع يبحثـون عـن خرافـة، عـن وهـم، عـن أسـطورة تحـل مشاكلهم بضربة واحدة، بدلاً من مواجهة العمل الجاد. وصناعة الأساطير سمـة مـن سمـات المجتمـع الشمولى. تسللت الخرافـة إلى صميـم حيـاة السوفييت.. وكانت فكرة أن يتمكن بسطاء العمـال مـن تحقيـق المعجـزات تتوافق تمامًا مع المناخ العام للنظام الشيوعى.

وعُيِّن لايسنكو – الأخصائى الصغير فى محطة تجارب أذربيجان الصغيرة – رئيسًا لمعمل فى (الأكاديمية الأوكرانية للعلوم الزراعية).

منهج علمى جديد، الدعاية

فى ١٣ نوفمبر ١٩٢٩ نشرت (المجلة الزراعية) – التى يصدرها الحزب الشيوعى – صفحة كاملة تناقش قضية إرباع سلالات القمح الشتوى وَدَعَت أربعةً من العلماء البارزين، فتحدّثوا جميعًا باحترام عن عمل لايسنكو إنما فى غير حماس، فقد رأوا أن الفكرة لا تزال غير ناضجة للتطبيق الواسع فى الحقل. وبعد بضعة أيام نشرت نفس المجلة تعليقًا طويلاً عن نفس الموضوع دون أن تشير إلى ما سبق لها أن نشرته، فقالت إن أهمية أعمال الزراعى لايسنكو إنما تأتى عن حقيقة أن إرباع القمح الشتوى يَعِد بزيادة المحصول فى مناطق كثيرة، (فتجارب الرفيق لايسنكو تقود مباشرة إلى حل واحدة من أخطر مشاكلنا اليوم – مشكلة الحبوب). تحول الكشف العلمى من المعامل إلى صفحات الجرائد. وبدأت السلطة الحكومية تستخدم الصحافة فى الضغط على العلماء.

علم الكولخوزات باستمارات الاستبيان

بمجرد أن تقلد لايسنكو رئاسة معمله الجديد أرسل نشرة إلى كل الكولخورزات والسوفخوزات يطلب فيها إرباع القمح الشتوى، وإرسال النتائج إلى المعهد. ولتسهيل العملية أرفق ثلاث استمارات استبيان تُرصد فيها النتائج.

لا خطأ فى فكرة استمارات الاستبيان فى حد ذاتها، لكن المنهج العلمى يتطلب بيانات مختلفة تمامًا. لم يكن لايسنكو فى واقع الأمر يعرف شيئًا عن قواعد البحث العلمى. لم يكن يعرف أن هذه الوسيلة لا تغنى عن تجارب مكررة، تُجرى تحت ظروف متماثلة، فى تربة متماثلة، ومعاملات للتربة متماثلة، وظروف حيوية متماثلة.. الخ.

ولقد تزامن توزيع هذه الاستمارات مع الفوضى التى عَمّت فى مرحلة تحويل الأراضى الزراعية إلى ملكية شائعة. وعلى ربيع ١٩٣٠ كان لايسنكو يدعى أن «المئات من (باحثى) الكولخوزات والسوفخوزات يستخدمون الإرباع بالفعل». وبدأت الجرائد تنشر عناوين مثل (سنلقن معارضى الإرباع درسًا)، وأبدًا لم تنشر شيئًا عن النواحى السلبية للإرباع. ولنا أن نتوقع ما يكون لهذا المناخ من أثر عند تحرير استمارات الاستبيان: مُلئت الاستمارات بأرقام مبالغ فيها - فقد عرف الجميع أىَّ أذى يمكن أن يحيق بهم إذا كانت نتائجهم متواضعة. فَهم الجميع كيف تُلفق النتائج حتى تُرضى. فلما قررت الحكومة تخصيص حصص للإرباع لكل مقاطعة، أصبح من الخطر أن تُملأ الاستمارات حتى بأرقام لا تُقدم إلا تحسنًا طفيفًا. وأخذت الخدعة تتضخم.

الهزيمة الأولى للوراثيين

وقبل أن تظهر أية نتائج للإرباع، دُعى لايسنكو فى أوائل عام ١٩٣٠ لإلقاء بحث أمام أعلى هيئة استشارية للزراعة السوفييتية. وقرارات هذه الهيئة فى القضايا الزراعية أوامر. قوبل البحث مقابلة حسنة، ووافقت الهيئة على الإرباع. وفى فبراير ١٩٣١ ألقى ورقة فى اجتماع اللجنة التنفيذية لأكاديمية لينين للعلوم الزراعية، فتبنّت قرارًا بأن الإرباع (قد أثبت نفسه)، ثم منحت المبتكر جائزة مالية كبيرة.

وبعد بضعة أشهر أصدر مجلس المفوضية الزراعية توجيهًا بزراعة قمح الإرباع فى عشرة آلاف هكتار بجمهورية روسيا، ومائة ألف هكتار بأوكرانيا، وبتعزيز معمل لايسنكو بمنحة سنوية قدرها ١٥٠ ألف روبل لإجراء البحوث وإصدار مجلة عن (الإرباع).

وفى سبتمبر ١٩٣١ أظهر لايسنكو براعته فى خطف الأضواء. كان ذلك فى مؤتمر عقد تحت عنوان (مشكلة الكفاح من أجل محصول كبير ثابت). قال إن تغيير عامل واحد، هو درجة الحرارة – قد مكنه من زيادة فورية قدرها ٤٠٪ فى محصول قمح أذربيجان الذى زرعه فى أوديسا. لم يذكر رقمًا آخر. رقم واحد مذهل كهذا يكفى. ثم تحول المؤتمرون إلى مناقشة تخفيض الزمن اللازم لاستنباط السلالات الجديدة، ذلك أن قرارًا علويًا كان قد صدر فى ٢ أغسطس ١٩٣١ عن بعض لجان الحزب (يأمر) بالإسراع من الانتخاب لإنتاج سلالات جديدة عالية المحصول تتلاءم مع الميكنة الزراعية، تقاوم البرد والجفاف، والآفات

والأمراض وتحمل الصفات اللازمة للنشر إلى الشمال وإلى الشرق، وبحيث يُختصر زمن استنباطها إلى ثلث أو ربع الزمن المعروف. قال الحاضرون من كبار العلماء إن هذا أمر مستحيل، إن إنتاج السلالة يتطلب ما لا يقل عن عشر سنوات، وهنا صاح رئيس المؤتمر (لا يمكننا أن ننتظر عشر سنوات.. إن الحزب والحكومة يطلبان من العلماء مجهودات فورية حاسمة بل وبطولية للتوصل إلى نتائج عملية).

وفى أواخر أكتوبر بدأ مؤتمر عن معالجة الجفاف افتتحه مولوتوف بنفسه، وفيه أعلن لايسنكو أن الإرباع سيجعل من التغلب على الجفاف أمرًا ممكنًا، وأضاف أنه عمل على (١٢٦٠ خطًا نقيًا معظمها من القمح الصلد أخذت من مناطق مختلفة من أذربيجان.. لم يُحسب وزن المحصول بعد، أما بالنسبة لوزن الحبة فقد تم وزن ألف منها، وكانت تفضُل كثيرًا حبوب القمح الأوكرانى).

أمن الممكن أن يقرر عالم أفضلية سلالة على أخرى بوزن ألف حبة جُمعت من مصادر لم تحدد؟ لكن القيادة قدمت له الدعم الكامل. صدرت جريدة إزفستيا تقول إن (الرفيق لايسنكو نفسه لا يدرك الأهمية الفائقة لعمله.. إنه عملنا نحن.. أن نطبق طريقة لايسنكو على نطاق واسع.. عندئذ سنضع الأمور على أساس علمى ثورى حقًا). واتخذ المؤتمر قرارًا (بأهمية العمل على التوصل إلى طريقة لمعالجة بذور أنواع أخرى من النباتات – بجانب الحبوب – قبل الزراعة). لم يكن ثمة شخص واحد قد أكل رغيفًا من قمح الإرباع. لكن لايسنكو تلقى فى ديسمبر ١٩٣١ أول وسام حكومى رسمى: (لأعماله فى الإرباع).

وعلى عام ١٩٣٢ كان لايسنكو مصرًا على أن يمتد الإرباع إلى محاصيل أخرى لم تُجر عليها أية بحوث: الطماطم، والذرة، والدُّخن، والسورجم، وحشيشة السودان، وفول الصويا، ثم أضيف القطن عام ١٩٣٣، وأشجار الفاكهة عام ١٩٣٤. ومنذ ذلك الحين أصبح تكتيك لايسنكو هو التلاعب بالمشاريع وتوسيع المجالات دون أدنى أساس يرتكز عليه من النتائج التجريبية.

خداع فى خداع

لكى يطبع لايسنكو ومساعدوه (منجزاتهم) فى أذهان قادة الحزب، كانوا يضيفون العام وراء العام ما يصلهم من بيانات عن محصول مرتفع من الكولخوزات وينسبونه إلى الإرباع، ثم يضربون المتوسط × المساحة المنزرعة بالدولة كلها ليتوصلوا إلى تقديرات هائلة لحجم المحصول. وكانت هذا التقديرات المضخَّمة تجد هوى فى نفس المسئولين وهم يواجهون كارثة زراعية. فلقد واجه الاتحاد السوفييتى فيما بين عامى ١٩٢٨ و ١٩٣٢ جفافًا مدمرًا، بجانب آثار ثلاثة من برامج ستالين: تحويل المزارع إلى ملكية شائعة، اعتقال نحو عشرة ملايين من الكولاك وعائلاتهم ونفيهم (عادة إلى سيبيريا) – وكانوا أنجح المزارعين، ثم قيام الجيش مع فرق خاصة من عمال المصانع بمصادرة كل الحبوب.

اعترف ستالين نفسه فى المؤتمر السابع عشر للحزب عام ١٩٣٤ أن أكبر تدهور حدث فى المحاصيل كان فى عامى ١٩٣١ و ١٩٣٢ عند

إعادة تنظيم الزراعة. وقال مولوتوف فى نفس هذا المؤتمر إن متوسط إنتاج الحبوب فى السنين من ١٩٢٨ حتى ١٩٣٢ قد بلغ ٠,٧٥ طنًا للهكتار، أقل بكثير من أهداف الخطة، كما فقدت الدولة أكثر من ٤٠٪ من ماشيتها وخيلها وما يصل إلى ٦٥٪ من أغنامها وماعزها، ونحو ٥٥٪ من خنازيرها. حدث كل هذا ولم يعترف ستالين أو أى من زملائه بأن تحويل المزارع إلى الملكية الشائعة كان بمثابة كارثة، وأن الأمر يستلزم وضع برنامج علمى سليم لتحسين أوضاع الزراعة.

كان الكثير من سلالات القمح الروسية العريقة جيد النوعية، لكن محصولها لم يكن وفيرًا. لو طُبِّق برنامج علمى صحيح مبنى على التقدمات الحديثة فى علوم الوراثة لأمكن بالتأكيد رفع كفاءة هذه السلالات، لقد استُعمل منها الكثير كأسلاف للسلالات الأمريكية والكندية الجديدة.

وفى نهاية عام ١٩٣٢ أعلن لايسنكو أنه يقوم بتطوير سلالة قمح جديدة فى حدود الإطار الزمنى الذى تقرر فى أغسطس ١٩٣١. كان آنذاك عضوًا بمعهد أوديسا للوراثة وتربية النبات. رفض سابجين مدير المعهد هذا ورأى ضرورة أن تقوم تربية النبات على الأسس الراسخة لعلم الوراثة، وطلب أن يَدْرس كل أعضاء المعهد نظرية الوراثة. لم يعجب هذا لايسنكو وتابعوه من معتنقى الإرباع. وبدأ النزاع.

كان سابجين قد لاحظ أثناء مروره بحقول التجارب بعد حصاد القمح أن ثمة محاولات تجرى لتلفيق النتائج، فأصر على أن يصحبه لايسنكو

إلى هناك لتفحص الأمر. ولم يمر زمن طويل قبل أن يُقبض على سابجين لأنه شخص (هدام) ويُسجن عامين. قامت معركة ضارية كما قيل – تغلب فيها فريق لايسنكو.. «ذلك الفريق الذى تحركه فكرة واحدة وإيمان راسخ بالنصر.. تغلب على كل العقبات.. ومضى واثقًا إلى هدفه المحدد الواضح: سلالة ينتهى تخليقها فى سنتين ونصف» (!).

وعلى نهاية عام ١٩٣٤ كانت المهلة التى حددها بنفسه لإنتاج السلالة قد أوشكت على الانتهاء، وكان الفشل باديًا أمامه. لكنه لم يهتم، وإنما أرسل فى يوليو ١٩٣٥ برقية إلى الحزب والحكومة تقول (بدعمكم تمكنا باستخدام التهجين من تحقيق ما قطعناه على أنفسنا من أن نطور فى ظرف سنتين ونصف صنفًا ربيعيًا من القمح لمنطقة أوديسا، مبكرَ النضج عالى المحصول. ولقد توصلنا إلى أربعة أصناف).

تَعَلُّم أن يُدَلِّس، أن يدعم آراءه ببيانات مزورة، أن يتجاهلَ كل النتائج التى لا تتفق مع توقعاته، وابتكر أسلوبه الخاص الذى يركز فيه على العبارات الرنانة، وأدرك ضرورة أن يتلون مع التغيرات السياسية.

ثم تحول بعد القمح إلى البطاطس ليعالج مشكلة رفع إنتاجها المنخفض فى الجنوب، فقرر دون أن يجرى تجربة واحدة أن بقاء الدرنات فى التربة الدافئة لمدة شهرين يؤدى إلى تدهور الصنف، أما إذا زرعت فى تربة باردة (قرب الخريف مثلاً) تحسن (الصنف) فى ظرف موسم أو اثنين. الطريق واضح إذن نحو تحسين البطاطس. ثم بدأ فى تشغيل طريقته المعهودة: وابل من المقالات فى الصحف تزكى زراعة البطاطس

الصيفية: إحدى عشرة مقالة فى الفترة من مارس حتى نوفمبر ١٩٣٥. وكان من المحتم أن يتحدث عن التضمينات السياسية لابتكاراته فتساءل: (لماذا لم يستخدم الرأسماليون المستغلون بالغرب الحقير مبتكراته؟ لأن إقرارهم بتغير طبيعة البطاطس فى الجنوب إنما يعنى تسليمهم بأن وراثة الكائنات الحية تتغير مع تغير ظروف الحياة، وهذا التسليم يصيب العلم البورجوازى للوراثة فى مقتل).

تُجاهد الدكتاتوريات كى تغرس الطاعة فى النفوس، إلى أن يخضع الناس للأوامر دون سؤال، بل وفى حمية. فالشعارات التى تتكرر آلاف المرات تصبح جزءًا لا يتجزأ من تفكير الفرد ووجوده، حتى أن تنحى إرادته وطموحاته الشخصية ولا يتبقى إلا الرغبة المتقدة فى تنفيذ التوجيهات. تَلْقَى عملية إخضاع إرادة الناس وفكرهم لمطالب الدكتاتور معارضةً قوية من أهم مَنْ يحتاجهم: المبدعين، المبتكرين من أهل الفكر، لاسيما العلماء. فمهنة العلم تتطلب النقد، والنقد فى المناخ الشمولى يعرِّض أسس البنية الشيوعية للخطر. وعلى هذا فقد أوضح قادة الاتحاد السوفيتى بجلاء أنهم يُقَدِّرون من العلماء مَنْ يفكن التعامل معه بنفس سهولة التعامل مع العمال والفلاحين، مَنْ يقبلون فى حماس أن يتسلقوا ذرى العلوم عند صدور الأوامر. يقول لايسنكو: (يسهل فى وطننا هذا أن تصبح عالمًا إذا توفرت لديك الرغبة والاستعداد. إن الحياة السوفييتية ذاتها تدفع الفرد ليصبح عالمًا من نوع ما.. إن كل مشارك ذكى فى نظام الكولخوزات والسوفخوزات هو بشكل ما ممثل للعلوم الزراعية. فى هذا

تكمن قوة العلم السوفييتى.. وهذا هو السبب فى أن يكون الطريق الذى قادنى إلى العلم طريقًا عاديًا مفتوحًا أمام كل مواطن سوفيتى). على يدى لايسنكو تحول معنى العلم ليصبح هزلاً، ليصبح أداة للدعاية السياسية.

برافو أيها الرفيق، برافو!

كان عام ١٩٣٥ عام النصر بالنسبة للإيسنكو، ففيه أثنى عليه ستالين وحيّاه. فلقد عُقد فى فبراير من هذا العام بالكرملين مؤتمرُ عُمّال الحصاد وحضره كبار العلماء وقادة الحزب والحكومة، وستالين. وقام لايسنكو فى الجَمْع خطيبًا مفوهًا يسحر سامعيه ويأخذ بألبابهم فينسون كل شىء ويرون فيما يقوله شيئًا من وحى ملهم. بدأ لايسكنو خطابه بتذكير الحاضرين بعشرات الآلاف من الكولخوزات التى تعمل (بالعلم التطبيقى) للإرباع. (لكن يا رفاق، هل أنجزنا كلّ ما يمكن أن ننجزه؟). أجاب على تساؤله (كلا. ليس كل شىء.. فعلى الرغم من أن الكولخوزات التى طبقت الإرباع قد أضافت إلى إنتاج الحبوب ٠,٣ - ٠,٥ مليون طن هذا العام.. فإن هذا القدر تافه، إن مهمتنا هى أن نرفع إنتاجية كل حقول الكولخوزات والسوفخوزات). ثم تحول يتهم ناقديه بالتخريب (ولكن يا رفاق، أليس هناك، ألم يكن هناك صراع على جبهة الإرباع؟) إن الكولاك يخربون (ففى داخل العالم العلمى وخارجه يظل العدو الطبقى عدوًا، حتى لو كان عالمًا.. لقد أدى نظام الكولخوزات عمله، ولا يزال يؤديه، مرتكزًا على المنهج العلمى الأوحد، المبدأ المرشد الوحيد الذى يعلمنا إياه الرفيق ستالين).

لمس الوتر الحساس. قفز ستالين واقفًا فى حماس وصاح: (برافو أيها الرفيق لايسنكو، برافو). وانفجر المؤتمرون فى تصفيق محموم. كان لتصفيق ستالين أهميته القصوى، فقد كان يعنى أكثر من كل آراء الأكاديميين مجتمعين. رُفع لايسنكو إلى مرتبة فوق كل العلماء.

نشرت برافدا خطاب لايسكنو بأكمله ومعه صورته وصيحة ستالين (الخالدة).

ما هى الميتشورينية ؟

فى عام ١٩٢٩ اقترح إيزاك بريزنت، الأستاذ المتخصص فى المادية الجدلية، على لايسنكو أن يربط الإرباع بالدارونية. والظاهر أن لايسنكو لم يكن قد سمع عن داروين، فسأله عَمَّن يكون هذا الرجل وعَمَّا إذا كان من الممكن أن يقابله كما اقترح عليه أيضًا أن يطلق على بيولوجيته الجديدة اسم (البيولوجيا الميتشورينية)، فاسم (البيولوجيا اللايسنكوية) قد يكون خطرًا عليه.

اشتهر البستانى إيفان ميتشورين (١٨٥٥ - ١٩٣٥) بتطويره العديد من سلالات الفاكهة والتوتيات، كما طور سلسلة من طرق تقنيَّة لتهجين السلالات، من بينها التطعيم. عندما كان يافعًا فى المدرسة الثانوية طُرِد لأنه (وقح)، فعلَّم نفسه بنفسه، وطور بنفسه نظرة مشوَّشة بدائية لقوانين البيولوجيا. لم يَدَّع هذا الرجل يومًا أنه رجل وراثة، لكنه كان يعشق الجدل والتأمل. كان مجرد هاو بسيط ساذج، عقد صداقة مع فافيلوف،

وعن طريقه وَصل إلى علية القادة. ولقد حاول لايسنكو مرةً عقد صداقة معه، فتوجَّه إلى منزله، لكن ميتشورين أغلق الباب فى وجهه. فلما مات عام ١٩٣٥ اختار لايسنكو مع بريزنت مقتطفات من كتاباته المتناقضة وصوَّرا الرجل على أنه العدو العنيد لمندل وغيره من الوراثيين، وقررا أن يُتَّخذ اسم (البيولوجيا الميتشورينية) اسمًا جامعًا لكل نظريات ميتشورين ومشاريعه.

زواج الحب

فى عام ١٩٣٤ نبتت فى ذهن لايسنكو فكرة غريبة، هى (زواج الحب)، تقول إن كل سلالات النباتات تتدهور من عام إلى عام، لكننا نستطيع أن نوقف التدهور إذا هجَّنَّاها سويًا، داخليًا وخارجيًا، وستكون النتيجة أن نرفع الإنتاج، ليس فقط من محصول واحد وإنما من كل محاصيل الدولة! كانت هذه الفكرة تعارض كل أسس علم الوراثة وتربية النبات كما تعارض خبرة المربين. يعرف المربون ضرورة أن تُزرع السلالات بعيدة عن بعضها بعضًا خشية أن تتهاجن سويًا، لكن، ها لايسنكو يقول لهم الآن إن مثل هذا المجهود لا طائل وراءه، بل إنه ضار، وأن طريقتهم فى التربية خاطئة، وكانت خاطئة، وأن عليهم أن يقوموا بتهجين السلالات. لم يقدم الرجل أية شواهد تعضد نظريته الجديدة، وإنما قدمها على أنها الحقيقة التى لا تحتاج إلى إثبات. بل لقد أكَّد أن أية اعتراضات تأتى من قوانين الوراثة لابد أن تكون خاطئة. ابتدأ بإنكار قوانين الوراثة واحدًا واحدًا، أما الآن فهو يرفض العلم من أساسه.

وطريقة تطبيق الفكرة عمليًا هي أن يضعَ المربي على ميسم الزهرة حبوب لقاح أزهار أخرى (وهنا تنتهي مهمتنا. لقد أعطينا الزهرة حرية اختيار ما تريد). هذا هو (زواج الحب)، أما التلقيح الذاتي فهو (زواج القهر)، فهو ليس زواجًا عن حب. فمهما كانت رغبة بويضة الزهرة في (الزواج) من (الرفيق) الذي ينمو بجوارها فإنها لن تستطيع لأنها مغلقة دونه ولن تسمح بمرور أية حبة لقاح. ولأول مرة عارضه فافيلوف، فانتقد الفكرة، ولكن بدمائة. وفجأة تغير موقف ستالين تجاه فافيلوف، فاستدعاه، وبعد لقاء قصير افترقا (كل في طريق). وبعد فترة وجيزة عُزِل فافيلوف من رئاسته لأكاديمية لينين للعلوم الزراعية، وفقد عضويته في اللجنة التنفيذية المركزية العليا.

وفي أكتوبر ١٩٣٥ بدأت الجرائد تشير إلى تحسن الوضع الغذائي في الدولة، وقارنت هذا النجاح (للزراعة الاشتراكية) بالعجز الغذائي في ألمانيا الفاشية. ونشرت برافدا على صفحتها الأولى صورة للايسنكو ومعه عامل زراعي يتفحصان قمح لايسنكو الربيعي. وأخذ لايسنكو يردد الحديث عن (علم حقول الكولخوزات والسوفخوزات) كقوة توازي «علم البيولوجيا البرجوازي، العاجز – بطبيعة الزراعة الرأسمالية – عن اختبار حقيقة استنباطاته.. إن مهمتنا يا رفاق هي التمكن من التراث العلمي لميتشورين، أحد كبار علماء الوراثة.. لكنا (يا للأسف) لا نهتم إلا بعدد الكتب الأجنبية التي قرأها الفرد» .. «يمكنك أن تسافر إلى أوديسا

وتقنع نفسك بأنا قد أنتجنا بالتهجين سلالة من القمح فى سنتين وخمسة أشهر. أين ستجد فى العالم حقائق كهذه؟ » .

وفى اجتماع عقد فى نهاية ١٩٣٥ لعمال الزراعة المتازين وبعض كبار العلماء بجانب كبار رجال الدولة، كان من بينهم ستالين، قوبل لايسنكو بتصفيق حاد ووقف المجتمعون يحيونه، حتى ستالين نفسه وقف يصفق. قال لايسنكو فى خطابه إن علمه يختلف عن كل ما سبقه من علوم، وأكد أن معظم علماء الزراعة يعملون (بلا هدف) لسنين طويلة، ليكتشفوا فى النهاية (أنهم كانوا يأكلون قوت الشعب هَدْرًا)، ثم أنهى خطابه بقوله (عاش الزعيم الكبير قدوة البروليتاريا فى العالم، وصانع انتصارات الكولخوزات والسوفخوزات، عاش الرفيق ستالين).

فى اليوم التالى أعلنت براڤدا أن لايسنكو قد منح وسام ستالين.

مواجهة مع علماء الوراثة

كان أول اقتراح للايسنكو هو إرباع قمح الشتاء، فلما أدرك أنه قد أدى إلى انخفاض المحصول، بدأ بعد عام واحد لا أكثر يروج لإرباع قمح الربيع دون أن يشير إلى فشل فكرته الأصلية. لكن بحلول عام ١٩٣٥ كان ثمة تجارب محكمة قد أجريت على أيدى علماء كبار، ووجدوا (أن الإرباع لم يرفع الإنتاج). لم يبرر الإرباع نفسه، إنما تسبب فى خسائر فادحة. بدأ العلماء يعترضون على إجراء الإرباع بالقوة، وقالوا إن لايسنكو يستبعد عادة النتائج السلبية، وهاجموا إدعاءات لايسنكو

بأنه قد تمكن من إنتاج أربع سلالات من قمح الربيع فى ظرف سنتين وبضعة أشهر. وهنا تحول لايسنكو ليقول إنه سيطور سلالة قمح جديدة فى عام واحد!

كان مقتنعًا بأن (ديدان الكتب) لا يستطيعون النيل منه. لقد تمكن من سيكولوجيا القادة وأدرك أن ترويجه العملة الزائفة أمر مرغوب.

فى عام ١٩٣٧ استُدعى رئيس أكاديمية العلوم وبعض العلماء إلى الكرملين لمقابلة ستالين ليفسدوا السهب فى أزمة الخضراوات فى موسكو، كما استُدعى لايسنكو أيضًا. وفى أثناء الاجتماع توجه ستالين إلى لايسنكو يسأله. فأخرج من جيبه بضع درنات صغيرة من البطاطس ووضعها على المائدة أمام ستالين، وقال إنه قد ذهب ليفحص حقول معهد زراعة البطاطس واستخرج بيديه درنات أول نبات قابله فى الحقل، فكانت هذه. ثم وضع يده فى جيبه الآخر وأخرج ثلاث درنات كبيرة، ووضعها أيضًا على المائدة، وقال إن هذه هى نوع البطاطس التى تنمو تحت كل نبات فى حقول أوديسا. وكان أثر هذه الخدعة التى لا علاقة لها بالعلم يفوق كل تصور. بدأ ستالين على الفور يؤنب العلماء وبأمرهم بأن يصححوا على الفور طريقتهم وأن يتبعوا أسلوب لايسنكو.

صعد لايسنكو سُلَّم الإدارة فازداد تبجحًا وأصبح غير مهذب سريع الغضب. أدرك أنه قد تمكن من تعضيد السلطات. صدَّق أنه معصوم من الخطأ، ولم يعد يرى سببًا أن يصر العلماء على تكرير أعماله. اتخذ وضع المعلِّم. ولما كان عاجزًا عن مواجهة علماء الوراثة ومقارعتهم الحجة

بالحجة، فلم يكن أمامه إلا أن يعلن: أن علم الوراثة كله زائف، وأنه يعرقل التقدم فى المرحلة الحالية، مرحلة إنشاء علم الكولخوزات والسوفخوزات.

فلقد تحول اجتماعٌ للأكاديمية إلى ساحة معركة حقيقية. قال معارضو لايسنكو إنه يزعم أن الإرباع سيرفع المحصول مئات الملايين من الكيلوجرامات، ولكن ماذا عن الخسائر الحقيقية التى سببها الإرباع؟ قال إنه يهزأ بكل البحوث المعاصرة على الكروموزومات، وإن اعتراضاته على علم الوراثة لا تهم، إنما المهم هو موقفه الضحل الذى يذيعه دون توقف عن العلم. قالوا إنه لا يفهم أساسيات العلم أصلاً. ثم وقف أعوان لايسنكو يدافعون. أكدوا أن علم الوراثة علم ضار، بل إنه ليس علمًا على الإطلاق، وإنما هو تشويه بورجوازى للفكر العلمى، وطالبوا بأن يلزم الوراثيون حدودهم، بل وأن يُحْظَر هذا العلم تمامًا لأنه علم تخريبى، وأن على الوراثيين أن ينسوا مندل وأتباعه، ومورجان.. وباقى المعارف الوراثية - فليس ثمة جينات. ثم أعلن لايسنكو نفسه عن عزمه على القيام عاجلاً بتحويل كل الحبوب الشتوية إلى حبوب ربيعية، ليس بالإرباع، (وإنما بتغييرها تغييرًا وراثيًا جذريًا.. إن أية سلالة شتوية يمكن أن تُحَوَّل إلى سلالة ربيعية). وهنا صاح فافيلوف (هل تستطيع أن تعدل الصفات الوراثية؟)، فأجاب بكل ثقة (نعم، الصفات الوراثية).

قامت الجرائد بعرض آراء نقاد لايسنكو بصورة يستحيل فهمها، أما هجوم لايسنكو على علم الوراثة والوراثيين فقد نشرته بالكامل جريدة

إزفستيا وجريدتان من جرائد الحزب الزراعية. امتلأت مجلته (الإرباع) بخطابات من الفلاحين يشيدون به لأنه (بطل الشعب)، وخُصص عمودٌ تنشر فيه صور (العلماء الفلاحين) فى (معامل الكوخ). واعتُبر لايسنكو (الفلاح الأكاديمى)!

مضى إذن إلى كسب رضاء الساسة والصحافة ورجل الشارع، وإلى تشويه سمعة كبار العلماءُ واحتضان معاونين يفتقرون إلى المعرفة والإبداع والموهبة. كانت مؤهلاته هى مؤهلات سيده ستالين: الذكاء المتوسط، سوء التعليم، قلة الأدب، الاستخفاف بالأخلاقيات. اتخذ فى البداية دور الحكيم العبقرى حتى جمع السلطة فى يديه، وأخذ يَعِدُ بوعود هائلة، ومَثَّل دور لفلاح الذى علَّم نفسه بنفسه، واستدرج العديد من كبار العلماء لتزسيخ سلطته، حتى أخرج الجدل من الساحة العلمية والزراعية إلى ساحة المعتقدات السياسية. بل لقد اعتبر علم الوراثة شيئًا من دين: ففى الوراثة هناك التركيب الوراثى الثابت وهناك المظهر المتغير، النظيران فى الأديان للروح الثابتة والجسد المتغير.

وفى يناير ١٩٣٩ انتُخب لايسنكو عضوًا بمجلس الأكاديمية. وفى اليوم التالى لانتخابه ظهر مقال فى (الزراعة الاشتراكية) يقول: (لا يمكننا نحن العلماء السوفييت أن نتجاهل علم الوراثة الحديث.. وعلى من يقترحون إلغاء علم الوراثة أن يقدموا أولاً البديل عن النظرية الكروموزومية، لا أن يقدموا نظرية تعيدنا سبعين عامًا إلى الوراء). ولقد حمل نفس العدد من المجلة ردًا غاضبًا من لايسنكو قال فيه: (إن من

يفهم البلشفية كما يجب لا يَصِحُّ أن يتعاطف مع الميتافيزيقا، أى المندلية. نعم، فهذه المندلية فى حقيقة أمرها ميتافيزيقا صريحة واضحة).

طلب اثنا عشر من كبار العلماء فى خطاب أرسل إلى الكرملين أن تجرى مواجهة بين لايسنكو ومعارضيه. ولقد تم النقاش بالفعل فى مؤتمر ابتدأ يوم ١٧ أكتوبر ١٩٣٩ واستمر أسبوعًا. عُقدت جلسات تحت عنوان (تحت لواء الماركسية)، ليتخذ الجدل صبغة سياسية صريحة. هوجم لايسنكو كما لم يهاجم من قبل.. ولكن كانت النتيجة النهائية هى الشجب الإيديولوجى للوراثة كعلم، وللمتخصصين فى هذا المجال، وأصبح التنديد بالوراثيين أمرًا توجيهيا للحزب!

غير أن المعارضين، وعلى رأسهم فافيلوف، لم يتوقفوا، فأرسلوا فى صيف ١٩٤٠ مناشدة إلى اللجنة المركزية للحزب تفضح آراء لايسنكو بخصوص الذرة الهجين. قالت العريضة إن الولايات المتحدة قد رفعت إنتاج الذرة فى عام ١٩٣٨ وحده بمقدار مائة مليون رطل باستخدام التهجين بين الخطوط النقية، وأنه كان من الممكن للاقتصاد السوفييتى الموجَّه أن يحقق زيادة فى المحصول أكبر، لولا موقف لايسنكو وخداعه.

اعتقل فافيلوف فى ٦ أغسطس ١٩٤٠ ليمكث بالسجن حتى مات فى يناير ١٩٤٣، وقبض على عدد كبير من أعضاء معهده فى ٢٨ يونيو ١٩٤١. وجهت إليهم تهم زائفة، وحكم عليهم بالإعدام رميًا بالرصاص.

تضاؤل التعضيد للايسنكو

وعد لايسنكو قبل الحرب العالمية الثانية بأن ينتج خلال عامين أو ثلاثة سلالات جديدةً مقاومة للبرد الشتاء. فلما فشل اقترح طريقة جديدة لزراعة سلالات سيبيريا المحلية تبذر فيها البذور مباشرة على جذامات قمح الربيع السابق، فذلك يوفر تكاليف الجرارات والوقود والعمل، كما أن جذور الجذامات ستحمى النبيتات الجديدة من الصقيع. انتقد علماء سيبيريا هذا الاقتراح، لكنه تمكن من إصدار أمر بتطبيقه، مما تسبب فى خسائر هائلة فى المحصول لفترة بلغت خمسة عشر عامًا.

وفى فبراير ١٩٤٧ صدر بيان من اللجنة المركزية للحزب يعبر عن عدم الرضا من بعض أفكار لايسنكو: طرق الانتخاب السريع، حظر الذرة الهجين، استبدال القمح الربيعى بالشتوى فى سيبيريا، وطالب البيان بتحسين طرق تربية النبات.

ومع ذلك ظل لايسنكو رئيسًا لأكاديمية لينين للعلوم الزراعية، وعضوًا بالمجلس السوفييتى الأعلى. لماذا لم يتخذ قادة السياسة والعلم قرارهم بإنهاء دوره فى الزراعة حتى تخرج من الفوضى التى عَمَّتْها؟ يبدو أن نشاط لايسنكو كان يرضى حاجة النظام، بغض النظر عن أخطائه الشخصية. ثم كان هناك الخوف من التغيير – نزعة المجتمع الشمولى إلى الإبقاء على التوازنات، فالتغيير المفاجىء فى قيادة ثبت ضعفها قد يؤدى إلى نتائج وخيمة. ثم، من كان يستطيع أن يتحدى شخصًا أثيرًا لدى ستالين؟

على أن لايسنكو لم يصمت وبدأ يدافع عن نفسه بتحويل المعركة إلى ساحة أخرى، فكتب مقالاً رفض فيه وجود صراع بين الأفراد داخل النوع الواحد، وأقر بوجود الصراع بين الأنواع. لكن نظريته هذه لم تجد أذنا صاغية بين البيولوجيين. أصبح استياء الكرملين والمعارضة العلمية خطرًا حقيقيًا يهدده.

لكن المناخ السياسي كان يتغير. أدرك ستالين بعد نهاية الحرب الخَطَرَ الكامن في مئات الآلاف من الجنود العائدين وقد عرفوا كيف يعيش الناس في الدول الرأسمالية. بدأت آلة الدعاية تؤكد على تخلف الغرب أيديولوجيًا وتكنولوجيًا، وعلى دهاء الرأسماليين، وعلى طريقة الحياة المنفّرة في الغرب. وبدأت المقالات تُنْشَر تؤكد أن القاطرة والقارب البخاري والطائرة والتليفون كلها في الأصل ابتكارات روسية. ثم بدأت محاكمة مَنْ يُتّهم بالتعاطف مع الغرب على أنه خائن وجاسوس. وانتهز لايسنكو وأعوانه الفرصة واتهموا علماء الوراثة بخيانة الوطن، ونادوا بضرورة اقتلاعهم من جذورهم. غير أن الوراثيين حاولوا أن يقنعوا قادة الحزب بأن اللايسنكوية خاطئة جملة وتفصيلاً، وأرسلوا سودتي كتابين بهما تحليلات مفصلة عن أخطاء لايسنكو وعما تم من تخريب للزراعة بسببها. تداولت أيدى كثيرة هذين الكتابين وأصبح محتواهما أمرًا شائعًا للجميع.

تزايد الهجوم على لايسنكو، وضَعُف موقفه واهتز الكرسي (العلمي) من تحته، ورأى أن الحزب لم يَعُدْ مثلما كان قبلاً. هل يفكر في

الاستقالة من منصبه كرئيس للأكاديمية الزراعية؟ لم يسبق أن أقدم شخص فى منصب رفيع على الاستقالة. فالحزب هو الذى يُعَيِّنُك فى المنصب، وهو الذى يطردك منه أو يرقّيك. لكن التهور بلغ به حدًا يكفى لكتابة خطاب إلى ستالين فى ١٧ أبريل ١٩٤٨، يطلب عونه. قال إن أعداءه – وهم قلة – قد بدأوا هجومًا مكثفًا عليه. هم لم يقدموا شيئًا على الإطلاق. لكنهم ادعوا أنهم (المعضدون ليتشورين، وقالوا إننا مَنْ يشوه تعاليمه، ونحن مَنْ يطورها). وعليه (فمن الصعب علىَّ أن أستمر فى عملى كرئيس للأكاديمية). ثم أردف أن الحُكْم على أى عمل لابد أن يكون عن مدى تعزيزه للزراعة الاشتراكية. رسم الرجل لنفسه فى الخطاب صورة حَمَل مسكين تتربص به ذئاب شرسة، ووعد إذا مُنح الفرصة فسيصنع الأعاجيب (لخدمة العلم السوفييتى.. وزراعتنا الجماعية والحكومية).

قمح متفرع السنابل

قيل إنها امرأة اسمها مُسْلِمَة ببجيفا، وهى عاملة بكولخوز فى أواسط آسيا، قد حصلت عام ١٩٣٨ على محصول هائل بزراعتها قمحًا له سنابل متفرعة، يعطى بضعة أضعاف محصول السلالات العادية. لكن الموضوع نسى حتى نهاية الحرب العالمية. وفى عام ١٩٤٦ استدعى ستالين لايسنكو وطلب منه تطوير سلالة من القمح متفرع السنابل تُنشر فى كل أنحاء الوطن وبأقصى سرعة، ثم سلمه صندوقًا به ٢١٠ جرامات من حبوب هذا القمح. أكد لايسنكو (لقائد كل الشعوب وكل الأمم) أنه سينجز المهمة.

لا شك أن لايسنكو كان يعرف الحقيقة تمامًا: فالحبوب التى تأتى من سنابل متفرعة لا تنمو إلى نباتات ذات سنابل متفرعة. لكن القائد قد أمَرَ، فكيف له أن يرفض؟ عندما أخذ من ستالين صندوق الحبوب كان يعرف أنه مقدم على خداع (القائد). لكنه قال إنه يتوقع أن يصل محصول الهكتار إلى عشرة أطنان. وعلى ربيع ١٩٤٨ كانت الجرائد تعلن عن النتائج المذهلة للقمح الجديد، ومضى أعوان لايسنكو (يحولون) القمح الربيعى متفرع السنابل إلى قمح شتوى. وصلت هذه النجاحات إلى ستالين، فابتهج حتى ثمل!

وفى مايو ١٩٤٨ دعا ستالين بعض القادة إلى مكتبه. أخذ يذرع الحجرة ذهابًا وإيابًا ينفث دخان غليونه ويقول: (كيف يجرؤ أحد على إهانة لايسنكو؟ من يتجرأ فيرفع يده ويحط من قدر الرفيق لايسنكو؟ من جرؤ على أن يفترى على الرجل؟).

وخرج لايسنكو من المأزق الذى وضعه الوراثيون فيه دون ما خدش. ثم قابل ستالين فى يوليو ووعده بأن تطبيق مبادىء ميتشورين سيمكنه من أن يرفع المحصول القومى خمسة أضعاف أو عشرة باستخدام القمح ذى السنابل المتفرعة - القمح الذى وجّه ستالين نفسُه نظرَه إليه، والذى قد أصبح بالفعل سلالة. ثم إنه فى خجل استسمحه أن يطلق على السلالة اسم (ستالينسكايا). ووافق الرفيق ستالين. وهُزم الوراثيون.

هزموا هزيمة مروعة. فقد أرسل مؤتمر الأكاديمية الذى عقد فى أغسطس خطابًا إلى ستالين يقول: (إن علْمنا يدين لك أيها العزيز.. بكل

منجزاته .. وكل ما أحرزه من تقدم.. ونعدك يا قائدنا العزيز بأن نصلح سريعًا ما ارتكبنا من أخطاء.. وسنقضى على الإيديولوجيا البورجوازية).

ثم إذا بجماعة من الفيزيائيين والفلاسفة ينادون بضرورة القيام على الفور بفضح التشويهات البورجوازية لنظرية النسبية لآينشتين.

المشروع العملاق لستالين

فى ٢٠ أكتوبر ١٩٤٨ أعلنت كل الصحف السوفييتية عن (أكبر مشروع فى التاريخ، مشروع لم يسبق له أبدًا مثيل)، فلقد قررت اللجنة المركزية للحزب، ومجلس الوزراء، ووافق ستالين على مشروع لزراعة الغابات للسيطرة على تآكل التربة، ولإدخال دورة زراعية فى أراضى الرعى، ولإقامة الأحواض والمستودعات المائية لضمان محاصيل وفيرة فى مناطق وغابات الاستبس. فعلى مساحة تزيد على ١٢٠ مليون هكتار – أى ما يعادل كل مساحة بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وبلجيكيا وهولندة مجتمعة – سيُزرع حزام من الغابات يصد الرياح الحارة الجافة، ويغير المناخ، وبه (ستختفى العواصف السوداء، سينتهى الجفاف، سيصبح المناخ أكثر اعتدالاً، ستغدو حياة ساكنى الاستبس أكثر راحة وأجمل وأمتع وأثرى، ستحصد الكولخوزات والسوفخوزات محاصيل أكثر وأكثر من الحبوب والخضراوات والفواكه، وسترعى قطعان هائلة من الماشية والأغنام) – هذا ما سيصنعه (مشروع ستالين لتحوير الطبيعة)، سيضمن الغذاء لشعوب الاتحاد السوفييتى لقرون تلى.

وجاءت الفرصة تسعى إلى لايسنكو، ليطبِّق (اكتشافه) بأن التطور يمضى دون منافسة بين الأفراد داخل النوع، الاكتشاف الذى يؤكد على تجارب (العون المتبادل) بين نباتات النوع الواحد فى الزراعة الكثيفة. كان يرى أن الطرق التقليدية فى زراعة الغابات – والتى تُزرع فيها الأشجار متباعدة حتى لا تؤثر الواحدة منها فى نمو الأخرى – هى طرق خاطئة. كان يعتقد أن الشجيرات تساعد بعضها بعضًا، وأن الأضعف منها يموت ليفسح المجال للأشجار الأكثر نجاحًا. وانطلاقًا من نظريته هذه عن (التضحية بالنفس) أصر على أن يُزرع حزام الغابات فى صورة مجاميع شجرية: ست أو سبع شجيرات بلوط تُزرع فى كل واحدة من خمس حفر متقاربة تشكل مجموعة.

كانت هذه الفكرة قد انتُقدت نقدًا عنيفًا عندما عرضها لايسنكو فى نوفمبر ١٩٤٧ وفبراير ١٩٤٨. لكن ستالين أصدر مرسومًا بأن تتم كل زراعات الغابات فى مشروعه العملاق بالطريقة التى اقترحها لايسنكو. لم يقدم (العالم) أية بيانات علمية تثبت أن النباتات تستطيع أن تقوم بنشاط (اجتماعى) هادف، وتضحى بنفسها من أجل بقاء نوعها وازدهاره، فتختار مستقلةً أيها يموت وأيها يستمر فى النمو على أكتاف من ضَحّى ومات من (الرفاق). نقل لايسنكو إلى البيولوجيا أفكار الصراع السياسى لتصبح الجوهر فى زراعة الغابات الجديدة.

وفى ربيع ١٩٤٩ زرعت مساحة ٣٥٠ ألف هكتار بجوز البلوط، واتضح فى خريف نفس العام أنْ لم يكن ثمة (عون متبادل) بين

البادرات. كانت النتائج كارثة. نجح نصف ما زُرع فى بعض المناطق، وخُمسه فى مناطق، وعُشره فى أخرى، وماتت كل البذور فى ٣٪ من المساحة. وتكرر نفس الشىء فى زراعة المواسم التالية. وعلى عام ١٩٥٦ لم يكن باقيًا من النباتات فى صورة أشجار حية سوى ٤,٨٪ مما زرع.

لم يتغير المناخ، لم تُوقَفْ الرياح الجافة، لم يتمكن الأطفال السوفييت من أن يأكلوا من الفاكهة ما يشاءون!

وعندما مات ستالين توقفت الجرائد تمامًا عن الحديث عن المشروع، وقدرت الخسائر بنحو ألف مليون روبل، وهذا تقدير بالتأكيد متواضع!

كيف ينجب طائر الوقواق عصفورًا

فى اجتماع للأكاديمية عقد فى أغسطس ١٩٤٨ أعلن لايسنكو أنه قد وجد طريقًا، يختلف عما قال به داروين، يتحول به النوع إلى نوع آخر. تقول نظرية داروين إن مثل هذا التحول يحدث تدريجيًا، لكن (نظرية) لايسنكو تقول الآن (إن تحول النوع إلى نوع جديد يحدث فى قفزة واحدة، دون أية مراحل وسيطة). فلقد استطاع الرجل (بتدريب) القمح الصلد (وله ٢٨ كروموزومًا) - بعد زراعته فى الخريف عامين أو ثلاثة أو أربعة - أن يحوله إلى قمح الخبز (وله ٤٢ كروموزومًا) دون أن يمر فى أية صور وسيطة. ثم إنه قدم للمؤتمر عينات نباتية مجففة تؤكد أيضًا تمكنه من تحويل الجويدار إلى قمح. لم يقدم أية بيانات علمية تعضد نظريته، لكنه حاول أن يعطيها أساسًا فلسفيًا. ثم بدأ يروج لنظريته فى

محاضرات عامة كثيرة، إدعى فى إحداها أنه من الممكن أن يتحول طائر الوقواق إلى عصفور هازج، فالوقواق الكسول ينقل بيضه إلى عش العصفور ليفقس هناك وتخرج صغار يغذيها العصفور بغذائه، فتتحول تبعًا (لقانون حياة الأنواع البيولوجية) إلى عصافير: من الممكن إذا أن يتحول القمح إلى جويدار، والجويدار إلى شوفان، والشوفان إلى شوفان برى، بل ولقد ادعى واحد من أتباعه بأنه قد تمكن من أن ينتج شجرة بندق من شجرة زان أبيض. (إن نظرية الديالكتيك.. قد منحتْ البيولوجيين السوفييت فرصةَ أن يكشفوا كيف تتحول أنواع النبات إلى أنواع أخرى). لم تعد لنظرية داروين بَعْدَ لايسنكو إلا قيمتها التاريخية!

مات ستالين .. يحيا خروشوف

وفى ١٥ مارس ١٩٥٣ مات ستالين، ثم تولى خروشوف منصب السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب. كانت العلوم الزراعية قد وصلت إلى أدنى مستوى، وبدأت حملات علمية مكثفة تحاول أن توقف هذا المد المُسِفّ من التهريج باسم العلم، وتفضح ما صدر ويصدر عن مدرسة لايسنكو، كما بدأت المعارضة السياسية. فى اجتماع اللجنة المركزية الذى عقد فى فبراير - مارس ١٩٥٤ جرت لأول مرة مناقشة مفتوحة عن نقص الحبوب وانخفاض المحصول وتدهور التربة وتدنى الإنتاج الحيوانى. وفى الاجتماع التالى فى يناير - فبراير ١٩٥٥ اتهم خروشوف قيادة العلوم الزراعية بوقوفها فى

وجه استخدام الذُّرة الهجين، واتُّخذ قرار بالتحول إليها. لم تكن هناك بالدولة سلالات للتهجين، ولم يكن ثمة وراثيّ واحد لتطويرها فتقرر استيراد كميات ضخمة من البذور من الولايات المتحدة، دُفع ثمنها ذهبًا. وبدأ النقد يوجه إلى لايسنكو فى الكتلة الاشتراكية خارج الاتحاد السوفييتى. فُضحت نتائجه الزائفة، واحتكاره للعلم، وقمعه معارضيه واضطهادهم بخدع سياسية ماكرة فجة. وكتبت المجلة النظرية للجنة المركزية للحزب عام ١٩٥٤ (عن الصراع ضد النظام الاستبدادى الذى ترسخ فى بعض المعاهد العلمية من قبل علماء يحاولون احتكار العلم)، وذكرت لايسنكو بالاسم.

وفى عام ١٩٥٥ حلت الذكرى المئوية لميلاد ميتشورين، وقررت الحكومة الاحتفال بها. أقيم الاحتفال فى مسرح البولشوى يوم ٢٧ أكتوبر ١٩٥٥، وظهر لايسنكو بجوار بولجانين رئيس الحكومة، ومالينكوف وشبيلوف – وتغيب خروشوف لوجوده خارج موسكو.

وفجأة، وفى أبريل ١٩٥٦ أعلنت الجرائد أن لايسنكو قد أعفى من منصبه كرئيس لأكاديمية لينين للعلوم الزراعية، بناء على طلبه. اعتقد الكثيرون أن هذه نهاية لايسنكو، أن الحظر سيُرفع عن البحوث الوراثية، أن تدريس البيولوجيا سيتغير. غير أن الوقت لم يكن قد حان بعد.

لكنه عاد ثانية

كان يوم أول مايو ١٩٥٦ هو أتعس أيام لايسنكو. فلأول مرة لم تصله دعوة لحضور الاحتفال التقليدى بعيد العمال فى مسرح البولشوى، بل لقد قُطع خط التليفون المباشر الذى يربطه بالكرملين، فلم يستطع أن يقدم تهانئه لقادة الحزب.

قيل إن خروشوف قد أعفى لايسنكو من منصبه لأنه يكرهه. لكنه قام بزيارة لمزرعة لايسنكو، (وأذهله ما رآه). فطلب منه أن يزرع هكتارًا قمحًا قرب بيته الريفى؛ كما طلب من (صانع معجزات) ثان (هو تسيتسين) أن يزرع هو الآخر هكتارًا. نجح لايسنكو فى الاختبار. وقال خروشوف فى ٣٠ مارس ١٩٥٧: (هناك من العلماء من لا يزال يعارض لايسنكو.. لكننى إذا سئلت عن أى العلماء أختار، لما ترددت فى اختيار لايسنكو. أنا أعلم أنه لن يخذلنا، ولا أعتقد أن هناك من العلماء مَنْ يفهم التربة مثل الرفيق لايسنكو).

وفى ٢٧ سبتمبر ١٩٥٨ منح لايسنكو وسام لينين لسابع مرة (لخدماته الجليلة للزراعة ومساعداته العملية فى رفع الإنتاج). ثم أخذ خروشوف نفسه يدافع عن الميتشورينية ويقلل من شأن معارضيها. ثم بدأ يصطحب معه لايسنكو فى جولاته. (ليس من نباتات تُقتَلَعُ من جذورها مثل الحشائش.. لكن ليس من نباتات مثلها تعود فتنبت).

السقوط الأخير

فضح خروشوف جوقة ستالين، وفتح أبواب الجدل حولها، والحق أن خروشوف نفسه قد نادى باقتلاعهم من جذورهم. وكان لايسنكو واحدًا من الجوقة، ومع انفتاح باب النقد وُضع لايسنكو تحت المطرقة. ثم تزايدت الأصوات التى تدين لايسنكو، هذا (الستالين الصغير)، فاضطر خروشوف إلى إعفائه من منصبه كرئيس للأكاديمية.

وفى نهاية عام ١٩٦٢ ووجه لايسنكو بهجوم عاصف من البيولوجيين ومن ممثلى العلوم السياسية. وفى محاولته حماية نفسه جمع فى ديسمبر مؤتمرًا عُرض فيه أكثر من سبعين تقريرًا عن (طرق) توجيه علم الوراثة، وكان التأكيد على تحويل السلالات الربيعية إلى محاصيل شتوية ببذْر بذورها فى الخريف لمدة سنتين أو ثلاث. قال لايسنكو، ونشرت البرافدا قوله: (والآن من يشكُّ فى إمكانية تشكيل وتخليق نباتات تتحمل الشتاء من نباتات لا تتحمله باستخدام الظروف البيئية؟). لكن تاريخ لايسنكو من الفشل كان قد أصبح أمرًا ذائعًا بين أهل الفكر. كرهوا ما عرفوه عن الرجل، وبدت لهم فجاجة أفكار مزعجة.

ثم مضى خروشوف فى إجازة إلى الجنوب فى ٣٠ سبتمبر ١٩٦٤. وفى ١٤ أكتوبر اجتمع قادة الحزب وعزلوا خروشوف، فيما سُمِّى (ثورة أكتوبر الصغيرة). وانتشرت أنباء تقول إن تعضيد خروشوف للايسنكو كان واحدًا من أهم أسباب عزله.

وانتهت أسطورة لايسنكو !